

الموروث المعماري للماء بمدينة تطوان¹

محمد العبدلاوي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان

تقديم

إذا كانت أهمية الموارد المائية قد ساهمت في إعمار منطقة تطوان منذ القديم، فإن كثيرا من عناصر العمران والمعمار قد ضاعت ولم يبق منها إلا بعض ما هو مدون عنها من إنتاج فكري ومما هو مادي إلا القليل من الشواهد. كيف ذلك؟ وفيما يتمثل ذلك؟ ومن خلال ما تبقى من هذه العلاقات في معناها الواسع (المادي منها والمعنوي) يتبين أن المنطقة تحتفظ بموروث ذي قيمة بالغة الأهمية. فما هي خصوصياته؟

فتعدد عناصر هذا الموروث نتيجة تنوع مظاهر ارتباط الإنسان بعنصر الماء والمكانة التي أنزلها إياه والقناعات التي تولدت لديه تجاهه من جهة، ثم تأثير عنصر الماء، في كل صفاته وحالاته، على سلوكه وتصوراته وأحاسيسه ونظراته وتطلعاته وغيرها، من جهة ثانية، زادت من أهمية هذه القيمة وأكسبت المدينة في هذا الشأن بعض الخصوصيات.

وستتم في هذا المقال مقارنة بعض مظاهر هذا الموروث وخصوصياته وذلك من خلال عرض الموروث العمراني والمعماري للماء بالمدينة والوقوف على جوانب من التراث المرتبط بالماء وغيرها لاستخلاص المكانة الرمزية والمعنوية التي منحها سكان المنطقة للماء.

تتنوع المنشآت المائية التقليدية والعصرية (الحديثة) بالمجال الحضري لتطوان الكبرى تنوعا كبيرا، منها ما توقف استعماله كليا أو جزئيا، ومنها ما هو حديث بالمجال ويؤدي دورا وظيفيا أساسيا وغيرها قيد الإنجاز. وقد تم الاهتمام بالمنشآت المستعملة، في إطار مقارنة تعنى

¹ - معظم المعلومات الواردة في هذا المقال مأخوذة من بحث أطروحتي في موضوع: "الماء والإنسان بمدينة بتطوان: دراسة جغرافية"، والتي حضرتها تحت إشراف الأستاذ محمد الناصري وناقشتها في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، سنة 2006.

بإمكانيات الادخار وتوزيع الماء الصالح للشرب، وتم تناول ما يرتبط بالنظام القديم (شبكة التوزيع القديمة) لاعتباره إرثا تاريخيا قديما ولكونه لم يعد يؤدي نفس الدور كما كان في السابق. فما هو نظام سكوندو؟ وما هي خصوصياته؟ وما قيمة ما تبقى منه؟

1- نظام سكوندو أو الشبكة القديمة لتوزيع الماء الصالح للشرب بالمدينة العتيقة

تعود النشأة الأولى لهذه الشبكة، على ما نعلم، إلى نهاية القرن التاسع الهجري على يد أبو الحسن على المنظري، بدليل أن المدينة ما تزال تحتفظ بأقدم حمام بُني بها، وكان من بناء هذا الأخير. ومن المعلوم أن مثل هذه المرافق لا تقوم ولا يمكن أن تؤدي وظيفتها إلا مع وفرة المياه. ولعل هذا ما يؤكد بداية تدجين المياه وتعبئتها نحو أغراض أخرى منزلية ومهنية، وذلك انطلاقا من مجموعة من العيون المائية² الموجودة بالقسم الأعلى من الحي القديم (بين باب المقابر وباب النوادر) قبل احتوائها من طرف البناء. واستمرت عملية مد قنوات الإيصال، داخل المدينة العتيقة، إلى النصف الأول من القرن الماضي، حسبما تشير إليه بعض الكتابات التاريخية والتصريحات الميدانية. وفيما يلي محاولة بسط للعناصر المهيكلة لهذه الشبكة ووظيفة كل منها داخل نظام التوزيع انطلاقا من نقط تعبئة المياه.

1-1- العناصر المكونة للشبكة القديمة لتوزيع المياه (الرسم، ص 30).

الصندوق: وهو عبارة عن صهريج صغير أو حوض تجميع المياه، عادة ما يتخذ شكلا مستطيلا، يُبنى عند ساقلة/مخرج عين ماء أو أكثر لتعبئة المياه ثم معالجتها -إذا كان الأمر ضروريا- وذلك قبل صرفها في قنوات الشبكة. والمعروف عن هذه الأحواض أنها غير معروفة إلا لدى قلة

2- على خلاف أغلب المدن المغربية العتيقة التي جُلب إليها الماء من بعيد وأساسا من أودية المنطقة التي تقع ضمنها، كما هو الحال بالنسبة لمدينة فاس ومكناس مثلا فالأولى استعملت مياه واد الجواهر (واد فاس). أما الثانية فكانت تعتمد على "ماء بوفكران الذي كان السلطان مولاي إسماعيل أدخله لعاصمة ملكه مكناس وحبس على أهلها ومساجدها وهاماتها وسقايات السبيل بها وسقي أجننتهم وبساتينهم لكونه يعلم أن الماء به قيام أمور الدين والدنيا وحياة البلاد والعباد، وهذه مدة تقرب من ثلاثمائة سنة وأهل مكناس يتصرفون في هذا الماء تصرف المالك في ملكه" سعيد بن سعيد العلوي "ثورة الماء".
قراء في كتاب أحداث بوفكران بمكناس (ابن زيدان مؤرخ مكناس)، فاتح وثاني شتنبر 1937. الاتحاد الاشتراكي-الملحق الثقافي- العدد 2675، الأحد 02 دجنبر 1990.

قليلة من الناس وأمناء الماء والقنّاوين (العارفين بعمليات الربط ومد القنوات وقضايا الشبكة).

قنوات التوزيع: وتسمى كذلك بالخطوط أو السواقي، وهي مجموعة من الأنابيب الفخارية، مختلفة الطول والقطر، تستعمل حسب الحاجة والضرورة. كانت تجلب في بداية الأمر من بعض المدن التي عرفت هذا النظام قبل تطوان (كمدينة فاس وشفشاون)، وقبل أن يُعتمد إلى صنعها محليا في المكان المسمى بالطّقالين³ من حي الطويل حاليا. وكانت القواديس (أجزاء من القنوات) تصنع من الفخار، ولها فهان متباينان من حيث قطرهما. يتسع الأكبر منها لاحتواء الطرف الأصغر من الأنبوب الآخر أثناء عملية التركيب والربط. وبالإضافة إلى ذلك، فإن القنّاوين كانوا يستعملون، أثناء إقامة الشبكة أو حين الإصلاح والترميم، مادة لاحمة (السلاقة)⁴ تساعد على طمس كل أو ما تبقى من الثغرات والفراغات بملتقى الأنابيب الفخارية بعد كل عملية، وهو ما أعطى للشبكة متانة وصلابة رغم قدمها.

وتتكون شبكة التوزيع من قنوات رئيسية وثنائية وفرعية. وتلتقي كثير منها عند نقط تسمح بتمرير الماء فيما بينها، وتعمل في نسق مكن من إيصال الماء إلى كل الأماكن الممكنة داخل المدينة العتيقة.

المعدات: (جمع معدات ومعد) وسميت كذلك لأن شكلها يشبه إلى حد ما معدة الإنسان (حسب تصريح معظم المستجوبين). وهي عبارة عن أنية مستطرفة في الغالب ولا يعترتها صدا. وتسمح بمرور الماء من قناة شبكة التوزيع إلى مكان استعمال المياه، وفق شروط دقيقة وأعراف محددة يضبطها القنّاويون. ونميز فيها بين عدة أنواع، أهمها:

• **معدة القسمة:** وهي المحطة الثانية بعد "الصندوق" الذي يمر فيه الماء، ومنها يتم توزيعه على القنوات الفرعية، بعد التأكد من صلاحيته ونقاؤه؛ كما أنها قد تدل على المكان الذي تجمع فيه مياه الفيض الآتية مما يعرف بالعقدة.

³- وهم الحرفيون المشتغلون على مادة الطّقل، وهو الطين الصلصالي في الغالب، يصنع منه الفخار بمختلف أدوات الاستعمال الممكنة.

⁴- "السلاقة: صوف كتّان معجون بزيت يلصق على قواديس الماء"، في الرهوني (أبو العباس أحمد) - عمدة الراويين في تاريخ تطاوين، الجزء الثالث، ص 201 (مخطوط).

• **معدة كأس عدل:** ويتعلق الأمر بأنية يصب فيها الماء الآتي من القناة المزودة لها، بحيث إذا امتلأت هذه الأنية عاد الماء إلى مجراه الطبيعي (أي القناة الأم) دون أن يفيض فوق أرضية مكان الاستعمال، فيقال عدل الماء إذا استوى مع أعلى الأنبوب الثاني الذي يصرف ماء الأنية الممتلئة خارجها. ولصاحب هذه المعدة الحق في غرف ما يشاء من الماء دون السماح له بصرفه أو إمراره إلى جهة أخرى داخل أو خارج محله عبر قنوات أو نحوها. وإذا حدث، فإن الفاعل يرغم على إعادة الوضع إلى حالته الطبيعية بأمر من قاضي البلد، تحت طائلة غرامة مالية وتأديبية.

• **معدة الفيض:** وهي أشبه ما تكون بجُبّ شبه سطحي. تقع عادة في مستوى أقل من الذي توجد فيه القناة (الخط)، وهي مبنية بالحجارة و"الثقنة"، ولها مَفْجَر (مخرج) للماء في مستوى قعرها يسمح بصرف المياه خارجها، وبالتالي خارج القناة المتصلة بها. ولذلك، فإنها تسمى أيضا بمعدة المياه الجارية. ولمستغل هذا النوع من المعدات حق التصرف في هذه المياه بما يشاء وكيف يشاء دون متابعة أو احتجاج من لدن أي كان.

• **المعدة البسيطة:** وتحتوي على "عتلة" واحدة أو ما يسمى أيضا بالمشرب، حسب بعض الشروحات الميدانية.

• **المعدة المركبة:** وهي التي تتوفر على عتلتين، أي مشربين.

• **"كراع الفلوس":** وهي معدة أكثر تعقيدا من حيث تركيبها. وسميت كذلك لأنها تشبه في شكلها "رجل الدجاج". وهي عبارة عن معدة قسمة رئيسية تنتهي عندها قناة رئيسية، وعنهما تتفرع مجموعة من القنوات الثانوية التي تتصل بالمعدات البسيطة والمركبة.

ونظرا لأهمية الماء كعنصر حيوي، وما يطرحه من حساسية، وحرصا على ما قد يلحق به من أضرار أو غيرها، فإن هذا النوع من معدات القسمة "كراع الفلوس" غالبا ما تقام في أماكن آمنة كالمساجد وإقامة قاضي البلد ودور الأئمة والأعيان...

العقدة: وهو اسم/اصطلاح يطلق على "الصهريج" الذي ينتهي إليه ما فاض من الماء وزاد عن كل الاستعمالات الداخلية، بحيث إن التدبير المحكم وضرورة الاقتصاد في الماء وضمنان استمرارية أمن الماء المدجّن،

5- "الثقنة" وهي ملءة لاحمة تستخلص محليا من صخر الكلس، وتستعمل كثيرا في البناء. ومقاومتها للعوامل التعرية أمّتن وأصلب من الإسمنت.

اقتضت تجميع هذه المياه في مثل هذه المحطات وإمرارها إلى معدة قسمة لتوزيعها من جديد على مستفيدين آخرين بسافة الشبكة. وهي قليلة الوجود في شبكة التوزيع.

الطالع والمُشرب: وهو عبارة عن أنبوب أو أكثر من الفخار يوضع في وضع عمودي، ويتصل بأسفله مباشرة بقناة المياه الرئيسية أو الثانوية، وبأعلاه ثقب يسمح بنزول الماء بمعدة كأس عدل أو غيرها، أو تصريفه نحو خط ثانوي آخر. ويعرف المُشرب الذي يزود المحل "بالداخل"، أما الذي يصرف المياه نحو وحدات استهلاكية أخرى فيسمى "بالخارج". وتتفاوت ارتفاعات هذه الأنابيب حسب طبغرافية المكان، لذلك نجد بعضها لا يعلو فوق سطح الأرض إلا ببعض السنتمرات، في حين أن غيرها يرتفع بما يقرب من مترين. وهذا التباين في الارتفاع من شأنه أن يؤمن جريان الماء في كل معدات نفس الخط. ويحاط الأنبوب أو الأنابيب بإطار مبني في شكل محدب وبارز على إحدى أجزاء الجنبات السفلى للواجهة الخارجية للمبنى المرتبطة بشبكة نظام سكودو. ولهذا الشكل المبني المقوس والبارز غطاء مندمج في الإطار لا يزاح إلا عند الضرورة من طرف القناوين لمعاينة طبيعة الجريان أو إصلاح عطب ما، وهذا أمر موكول إليهم دون سواهم. ويسمى الإطار المبني وما بداخله "بالطالع"، كما أنه "يطلق على المعدة التي يطلع فيها الماء ليقسم على الدور وغيرها...".⁶ وطريقة التوزيع/التقسيم لا تعتمد عامل الزمن كوحدة للقياس، كما هو الحال بالمجال الريفي عادة (كما سيأتي)، ولكن تقوم أساسا على أهمية السهم/الحظ وموقع المسكن من خط التوزيع.

"لُقنا" (سقايات عمومية): يطلق هذا اللفظ على النقطة المائية المُعدّة والمهيأة للاستعمال من طرف عامة الناس والبهائم الوافدة على المدينة، وتسمى كذلك بالفسقية: "تطلق عند العرب على ما يُعرف عندنا بالخاصة، ويقال لها أيضا بيلة"⁷، ويقابلها من حيث وظيفتها ما يعرف في تطوان

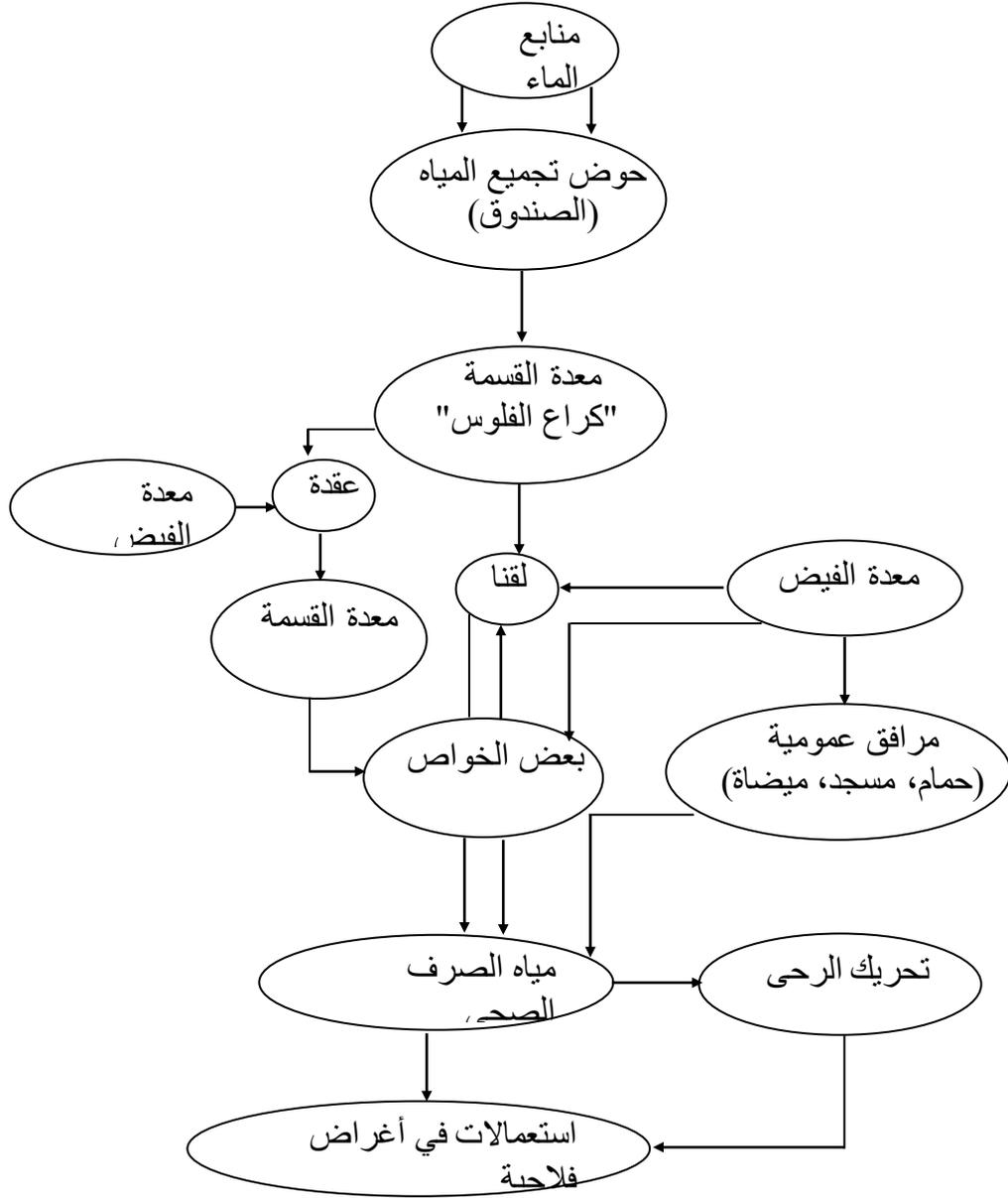
6- الرهوني (أبو العباس أحمد) - عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، الجزء الثالث، ص 122 (مخطوط).

7- المؤلف نفسه والمصدر نفسه، ص 184 (مخطوط). و"البيلة: حوض النافورة، وترادفها في الاستعمال أحيانا لفظة - خصّة- وهي بالإسبانية والإيطالية...". حسب ما ورد عند بنعبد الله (محمد بن عبد العزيز) -1996- الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي"، الجزء الرابع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص 232.

بالحنفية⁸ أو السقاية العمومية وأحيانا النافورة. وإليها تنتهي بعض خطوط (قنوات) توزيع مياه الشبكة القديمة (كما هو مثبت في الرسم التبسيطي). ومن هذه "قنا" التي ما زالت قائمة إلى الآن يمكن ذكر "قنا" باب العقلاء، و"قنا" باب التوت، و"قنا" باب الصعيذة و"قنا" المتصل بضريح/زاوية سيدي الصعيدي و"قنا" الوسعة (المتصلة بزاوية سيدي أبي العباس) و"قنا" المتصل بجامع غيلان بحومة المطمر، و"قنا" الخراز (وسط نمار العيون)، و"قنا الكبير" (أمام الزاوية الريسونية) و"قنا" السوق الفوقي و"قنا" الحدادين أو قوس الحمام و"قنا" زنقة العطارين، و"قنا" الطالعة، و"قنا" جامع سيدي علي بركة و"قنا" للا فريجة... ومن أشهرها: "قنا" باب العقلاء، و"قنا" باب التوت، و"قنا" باب الصعيذة، ومعدة بالخرازين، و"قنا" الموجود على يمين الخارج من الغرسة الكبيرة إلى زنقة المقدم، و"القنيوي دَ الجنوي" قرب زاوية سيدي بلفقيه (عن يسار الهابط من نقيبة الجامع الكبير إلى باب العقلاء)

8- "الحنفية: أنبوية ذات لولب تُرَجُّ في ثقب من الحوض لاستئفراغ الماء منه عند الحاجة"، حسب تعريف المنجد في اللغة والأعلام -1986-، الطبعة السابعة والعشرون، منشورات دار المشرق، بيروت، ص 158. ومن هنا، ومن باب التشبيه، فإن البعض كان في السابق يفرق بين الحنفية (النقطة المائية التي كانت ملاصقة ومتصلة بجدار مبنى، من جهة الخارج، وحيث كانت تصلها المياه الجارية فيها) على خلاف النافورة التي كانت معزولة عما سواها يصلها الماء من تحتها. أما السقاية فيمكن أن تكون في الموضعين معا.

رسم تبسيطي- تقريبي لجانب من نظام توزيع المياه داخل الشبكة القديمة بتطوان



← اتجاه جريان المياه

المصدر: استجابات وتحقيقات ومعاينة ميدانية شخصية.

وهناك مجموعة اندثرت نهائيا مثل "لقنا" الأترانكات (قبالة زاوية الفاسي، وكانت تسمى لقنا الكبير) وثلاث أفنية بزنقة التشريتشر و"لقنا" ساحة اللبادي و"لقنا" عاشر بزنقة المقدم؟ ومعدة عند نهاية زنقة عزيمان (حومة الأترانكات)، و"لقنا" سيدي الناجي بالعيون، ومعدة تربيعة التسفيد (أمام مزارعة سيدي بركة)، المعدة العمومية في درب الخطيب أمام مسجد للا غيلانة و"لقنا" المتصل بباب مسجد ابن صالح (جامع الشحيث) والمعدة التي كانت بالجزارين غير بعيد من الغرسة الكبيرة، وغيرها.

وتجب الإشارة إلى أن بعضا منها كان قد توقف الماء عن الجريان به ولكنه أعيد إليه لبعض الأسابيع خلال شهري يناير وفبراير من سنة 2003 ثم توقف مرة ثانية ليعاد الجريان ثالثة منذ الأسبوع الأخير من يناير 2004، كالتالي في ساحة سوق الحوت القديم ومدخل الغرسة الكبيرة وزنقة المقدم، ثم توقف ثانية لأسباب غير واضحة. ومنها ما يتهاوى تدريجيا، وغيرها تم ربطها بماء شبكة مياه الوكالة المستقلة الجماعية لتوزيع الماء والكهرباء خلال النصف الثاني من السبعينيات وبداية الثمانينيات.

وتعتبر "لقنا" إحدى المحطات المهمة داخل شبكة سكوندو، لما أدته وتؤديه من خدمات داخل الوسط الحضري العتيق. وتكاثرها بهذا المجال يعتبر بحق "إحدى خصوصيات المعمار الحضري الإسلامي..."¹⁰.

فعلاوة على الجانب المادي لهذه "لقنا" والتمثل في تقديمها الماء لمن يحتاجه، فإن الإنسان بطبعه جُبل على جعل الماء مصدر إحياء وميدان إبداع، ووسيلة تعبير (كما سيأتي فيما بعد). ولا يشذ عن هذا ساكن المنطقة المتحدث عنها، لأنه جعل من بعض نقط الماء (لقنا بالخصوص) مجالا للتعبير المادي عن بعض أحاسيسه، وكأنه بذلك يريد أن يتحدث للماء الجاري عن ماء معنوي. وهذا ما قد يشاهد ويستنبط من النقش والزخرفة

9- نسبة إلى الحاج محمد عاشر [1179-1200 هجرية]، قائد تطوان أواخر القرن 12 للهجرة. "وللقائد عاشر بعض آثار بتطوان وناحيتها ومن ذلك "القناة الواقعة في زنقة المقدم بين جامع لوقش ودرب شرفاء وزان. وهذه القناة ينهمر منها الماء الغزير ويستفيد منه الناس والمواشي كثيرا. ويقال أن ماء تلك القناة يأتيها من الدار التي كانت لعاشر المذكور وهي الدار الواقعة في قعر الدرب الملاصق لتلك القناة... وتعرف الآن بدار بنونة"، عن داوود (محمد) -1963- تاريخ تطوان، القسم الأول من الجزء الثاني"، العدد 4، الطبعة الثانية، دار كريمة للطباعة، تطوان، ص 263. وقد تعرضت هذه المنشأة المائية بعد تعطيلها إلى تحويل وظيفتها من حنفية إلى محل تجاري بترخيص من البلدية منذ نونبر 1994.

10 - "Un detalle característico de la arquitectura urbana musulmica es el gran número de fuentes públicas..."، in Anuario-Guia Oficial de Marruecos -1924-, año III, Idetorial Ibero-Africano-Americana, Madrid, p.313.

التي تتميز بها بعض أشهر هذه الحنفيات العمومية، ومنها قنا باب العقلاء و قنا باب التوت، على سبيل المثال. ويعتبر اختيار الموقع والمظهر العام للحنفيات ومحتوى إطارها الخارجي... أدلة تكشف على أهمية عنصر الماء في تنظيم المجال الحضري العتيق وهيكلته ودلالات الماء المتعددة لدى قاطني المدينة منذ نشأة النواة الأولى. فموقع "لقنا" عند مدخل المدينة من شأنه أن يوفر للقادم إليها وللبهائم المسوقة مادة حيوية (الماء) قد يصعب الاهتداء إليها في مجال عرف تدجين المياه. وهو سلوك/إجراء له أكثر من دلالة إيجابية.

والتأمل في أهم مكونات هذه الحنفيات يدرك القيمة المعنوية التي أولها سكان المدينة لعنصر الماء، ذلك أنهم لم يعتبروه مادة للاستهلاك فقط بل جعلوا من معظم الحنفيات العمومية، لاسيما الواقعة منها قرب الأبواب الرئيسية، منشآت مائية تختزل في كينونتها معظم مظاهر حياتهم الحضرية. فتفنن الحرفيون في الزخرفة والنقش وفق تصور نابع من الإرث الحضاري والمكونات الثقافية الإسلامية. فاستعملوا، على سبيل المثال، الزليج والرخام التقليديين في كتابة آيات قرآنية وأحاديث نبوية وحكم وأبيات شعرية... لها صلة بموضوع الماء، وذلك بخط عربي أصيل، وفي تناسق تام بين المواد المستعملة والنص المنقوش. كل هذا جعل من هذه الحنفيات العمومية رموز مجالية وجمالية ذات دلالات متعددة في ذاكرة القاطنين والوافدين، ومعالم حضارية وحضرية متميزة¹¹. كما أن المعدات والحنفيات الخاصة غالباً ما كانت، ومحيطها المباشر، أماكن تحظى بعناية خاصة ومصدر ترفيه واستمتاع، وأشبه ما تكون مقدسة. الشيء الذي جعل منها أحد العناصر المعمارية المتميزة وأكسبها، مع الزمن، طابع التراث الحضري.

وكل هذه العناصر (أحواض التجميع وقنوات نقل المياه ومختلف معدات التوزيع والحنفيات العمومية) كانت تعمل في انسجام وتناسق متينين ضمنا لهذا الموروث حسن السير الوظيفي منذ إقامته. وتنوع هذه العناصر مرتبط بتنوع أدوارها داخل نظام التوزيع، من جهة، ورغبة الإنسان في إجراء المياه في كل مجال المدينة لتكون الاستفادة أعم وفعالية التدبير أنجع.

¹¹- El Abdellaoui Mohamed-2001- "El agua de Skundu", in *La Medina de Tetuan: guía de arquitectura*, ciudad de Tetuan (Consejo Municipal de Tetuan Sidi Al Mandri) & Junta de Andalucía (Consejera de Obras Publicas y Transportes. Direccion General de Arquitectura y Vivienda), Tetuan-Sevilla, pp. 74-81.

فعملية التعمير، إلى غاية دخول الاستعمار الإسباني الأول، روعي فيها عامل الاستمرارية وحضور المياه واحترام الموروث الهيدروليكي. لذا، فإن حركية البناء كانت تعمل على إتمام ما بدأه السلف دون هدمه أو تخريبه أو حتى تهмиشه، مع إضافة بعض ما يميز فترات البناء والتعمير الحديثة.

من هنا يتضح أن عنصر الماء، داخل المدينة العتيقة، كان قد بلغ درجة عالية من الاندماج داخل المجال الحضري التقليدي (القديم) وقديما قيل: "إذا أردت أن تعرف حضارة شعب ما فانظر في مدينته".

ومقارنة لما كانت عليه هذه المنشآت المائية التقليدية كأحدى مكونات المجال الحضري لتطوان العتيقة، وما آلت إليه، يتبين أن هذا الوسط فقد كثيرا من عناصر هويته ومظاهر عمرانية ومعمارية، وما تبقى هو أيل لا محالة للتلف والدمار. كيف ذلك؟

2-1- شبكة سكودو: من عامل مهكل للمجال إلى "مصدر ماء ملوث" وإشكال الانتماء والتبني

تعود بداية الخلل في هذا النظام إلى الاحتلال الإسباني الأول (1860)، ثم ازداد الوضع استفحالا بعد ذلك. إن اتباع المسؤولين، منذ الحماية، سياسة تدبير وهيكلية المجال وغيره من مختلف القطاعات على أسس ونظرة قطاعية، وغير متكاملة ولا شمولية لوحدة المجال، قد عمق من خلل الأوضاع في كل القطاعات. وجراء هذا أصبح التعامل مع المدينة العتيقة وثقل موروثها مقسما بين عدة مصالح لا يجمعها رابط، وللجماعة المحلية مسؤولية التدبير المباشر. فماذا أنجزت هذه الأخيرة في هذا الشأن، ولاسيما أن المعمار المائي أصبح جزء من الممتلكات الجماعية؟

إن سياسة المجلس الجماعي للمدينة، منذ البداية، لم تول اهتماما يذكر لهذا الموروث. وحثه في ذلك محدودية الإمكانيات وإكراه الأولويات، ولكون أن هذا التراث يهتم جهات أخرى (وزارة الثقافة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وكالة توزيع الماء والكهرباء، والخواص وغيرهم). ومع ذلك، وتحت ضغوطات السكان المستغلين لمياهه واحتجاجاتهم المتوالية، فإن المجلس، بعد امتناع وتردد، قام ببعض الأشغال المحدودة خلال العقد الماضي. وتتمثل هذه في إصلاح بعض النقاط المائية للشبكة

القديمة. فبالنسبة للسنة المالية 1998/97 مثلاً "شملت التدخلات الخاصة بصيانة قنوات ماء سكوندو العديد من النقاط، استهلكت خلالها المواد التالية: الإسمنت (55 كيس) والرمل (7,5 م³) والحصى الروزي (2,5 م³)".¹² ونفس المجلس تدخل بعد ذلك على مستوى "صيانة الطرق وقنوات ماء سكوندو والحنفيات...".¹³ غير أن المثير في هذا التدخل هو:

- محدودية الإصلاحات التي يقوم بها بعض الأعوان الذين لا دراية لهم بطريقة اشتغال النظام وسيره الوظيفي، وهو ما يزيده تداعياً؛
- إن تدخلات البلدية في هذا المستوى، على قلتها ونوعيتها، اعترافاً ضمنياً وصريحاً بدور نظام سكوندو في تزويد شريحة مهمة من سكان المدينة العتيقة بماء الشرب، والموافقة التامة من طرف المصالح البلدية وضمنها المكتب البلدي للصحة على صلاحية هذا الماء وطهره. وهذا يتعارض مع موقف مندوبية الصحة العمومية بالمدينة من مياه هذا النظام كما جاء في كثير من تقاريرها ومحاضر المجلس البلدي.
فالموقف السلبي والرافض لاستعمال مياه هذا النظام العتيق أُتخذ كذلك من طرف الوكالة المستقلة الجماعية لتوزيع الماء والكهرباء بالمدينة، وهو ينبني على أساسين رئيسيين: قرارات مندوبية الصحة ورغبة وكالة التوزيع في القضاء على الاستعمال المجاني للمياه داخل المدينة. وهو نفس الرأي الذي أخذت به الدراسات التي اهتمت بالموضوع بعد ذلك.¹⁴ وكان لمثل هذه

¹² - المجلس البلدي لتطوان-سيدي المنظري -1998- "تقرير مصلحة الأشغال: حصيلة إنجازات سنة 1998/97" محضر رقم 16.

¹³ - المجلس البلدي لتطوان-سيدي المنظري -1999- "تقرير عن الأشغال المنجزة خلال سنة 1999"، محضر رقم 13، ص 16.

¹⁴ - * «Il s'agit essentiellement du problème du réseau Skundu et des puits et ressources non contrôlés de la Médina. L'étude générale de pollution conclut sur la nécessité de fermer ce réseau et ces puits, qui constituent une menace constante pour la santé publique...», S.A.E.M.- Groupe huit -1980- «L'environnement en Médina de Tétouan», pp. 111-112.

* «Il est recommandé que le réseau skundu soit remplacé». Direction de l'Urbanisme et de l'Aménagement du Territoire, Direction de l'Urbanisme et de l'Architecture, Division de la Planification Urbaine, D.P.H.A.T. de Tétouan -juin 1984- «S.D.A.U.T. Rapport final, volume I: Synthèse des études générales et sectorielles», p. 108.

* «Le vieux système de distribution ancestral (skoundou) de la Médina, qui comprend 400 points de prise d'eau, est également contaminé. A l'exception des données de 1990, 50% des échantillons testés étaient contaminés », Agence Américaine pour le Développement International -mars 1992- «Impact de l'urbanisation sur les ressources naturelles, Tétouan, Maroc», pp 5-13.

* «Par ailleurs, par mesure d'hygiène, le réseau Skundu devrait être totalement éliminé». SDAU de Tétouan, INYPSA, Rapport final, mars 1997, p. 18.

المواقف والقرارات أكبر الأثر في التعجيل بتردي وضعيتها، وعرض مياهها في كثير من أجزاء المدينة العتيقة إلى مختلف أنواع التلوث:

- أصبحت معظم العيون المزودة للشبكة غير محمية من التلوث؛
- أصبحت قنوات التوزيع معرضة أكثر للتهشيم والتلوث المختلف المصادر، لاسيما وأن هذه القنوات تكاد تكون شبه سطحية؛
- إن التزود عبر خط ماء مشترك وغير محمي يمر من مسكن لآخر يساعد على نقل الملوثات بين المستغلين لنفس الخط، لاسيما وأن معرفة معظم هؤلاء بخبايا هذا النظام محدودة جدا.

ودون الاكتراث بالأهمية التاريخية والقيمة الاقتصادية والثقافية التي اكتسبها هذا النظام (شبكة التوزيع القديمة) والتي تميزه بل وتجعل هذه المدينة تفرده عما سواها في كثير من محتوياته، والحاجة المتزايدة لاستعمال مياهه، فإن كثيرا من الجهات (وكالة التوزيع والمصالح البلدية والخواص) عملت على إتلاف بعض معالمه وأخرى دعت إلى ذلك بذريعة تلوث مياه الشبكة القديمة... وكثير من هذه الجهات قدمت اقتراحات في شأن التخلص منها. ويمكن تصنيف هذه المواقف/الاقتراحات في ثلاث سيناريوهات:

- **إتلاف الشبكة**، وذلك بتحويل مياهها نحو شبكة تصريف الواد الحار. هذه العملية التي قدرت تكاليفها سنة 1980 بحوالي 500 000 درهم¹⁵. وما هو مؤكد هو أن تنفيذ هذا الاقتراح يصطدم بعدة عراقيل، منها عدم التجاوب مع السكان الذين يستغلون هذا المصدر مجانا ويعتبره المالكون جزءاً من الملكية العقارية الخاصة غير القابلة للمساومة أو النزاع، بل ومن هؤلاء من "أخذ على نفسه عهدا بمقاومة الدولة إن أقبلت جهة ما على قطع هذه المياه عن منزله".

وأثناء انتشار وباء الكوليرا بتطوان في منتصف السبعينيات، وبعد خلق الوكالة المستقلة الجماعية لتوزيع الماء والكهرباء بالمدينة، أقدمت هذه المؤسسة - مستغلة ظروف انتشار هذا الوباء والإجراءات الوقائية المتبعة - بإتلاف كثير من خطوط الشبكة وإيقاف جريان المياه بها وبمجموعة من الحنفيات العمومية وتعطيل كثير من الخطوط ونقط الماء. وكان الهدف

¹⁵ - S.A.E.M.- Groupe huit -1980-, *op. cit.*, p. 124.

الأساسي هو إرغام السكان على الربط في شبكة الوكالة المستقلة الجماعية لتوزيع الماء والكهرباء¹⁶.

والملاحظ على مستوى السقايات العمومية القديمة، مثلاً، أن هذه المؤسسة قد عملت على إيقاف جريان مياه شبكة سكوندو عن معظمها وإيصالها، بديل ذلك، بمياه وكالة التوزيع، وهو ما كلف حوالي 10 000 درهم¹⁷. ومن شأن هذا في نظر الجهات المعنية أن يخلق نوعاً من القبول التدريجي لدى السكان والتخلي المرحلي عن استعمال مياه الشبكة التقليدية. وهو إجراء قوبل بالرفض في كثير من أرجاء المدينة.

إن المثير في هذا الأمر هو العمل على إتلاف عناصر الشبكة ومكوناتها والقضاء على نظام التوزيع كله وليس العمل على إيقاف جريان الماء فقط، وهو ما يقلل من قيمة بعض هذه الدراسات في نظرنا لا اعتبار أن النظام لا يعني جريان المياه فقط ولكن تراكم الخبرات العلمية والمهارات "التكنولوجية" المتعلقة بتعبئة المياه ونقلها و تخزينها وتوزيعها بل وحتى تصريفها كذلك.

- **تحويل هذا النظام من شبكة تقليدية إلى شبكة توزيع مياه صالحة للشرب:** وعلى نقيض السيناريو الأول، فإن هناك من يدعو إلى إقامة شبكة قنوات حديثة على شاکلة القديمة. ويبدو أن هذا الاقتراح يحظى بقبول كثير من الفاعلين. غير أنه يصطدم بصعوبات جمة مما يجعله صعب التنفيذ، لما يتطلبه من إمكانيات مادية ومعرفة دقيقة بتفاصيل الشبكة، الشيء الذي لا يمكن تحقيقه إلا بإشراك السكان والعارفين ومساهمة المنظمات ...

- **الاحتفاظ بالشبكة وتسخير مياهها لبعض الأغراض فقط،** ويبدو هذا الاقتراح هشاً في محتواه لأنه لا ينظر إلى نظام التوزيع نظرة شمولية وبنوية، بل جزئية وقطاعية. وأهم الأغراض المقترحة هي استعمالها في تسهيل عملية الصرف الصحي وتنظيف المراحيض العمومية والخاصة وسقي الحدائق العمومية وتنظيف الأزقة والشوارع وغسل وتنظيف أدوات نقل النفايات الصلبة... والاستعمال في بعض الصناعات الحرفية كالدباغة

¹⁶ - تصريحات أحد كبار المسؤولين عن تدبير قطاع الماء بالوكالة المستقلة الجماعية لتوزيع الماء والكهرباء بتطوان، مارس 1997.

¹⁷ - S.A.E.M.- Groupe huit -1980-, *op. cit.*, p. 125.

مثلا وكذا بالحمامات والمساجد. وهذا التضيق في ميادين الاستعمال من شأنه إتلاف بعض عناصر شبكة التوزيع الموروثة.

وقد تم تطبيق بعض جوانب هذه الاقتراحات جزئيا، على علاتها، من قبل المصالح المسؤولة. ومن خلال المقترحات الثلاث، فإن الدراسات التي اهتمت بالموضوع لم تقدم مقارنة عملية توفيقية تعمل على ضرورة الحفاظ على استغلال هذه الموارد وتجديد شبكتها وإعادة هيكلة نظامها وفق خصوصيات المدينة العتيقة وبما يضمن للشبكة حسن سيرها الوظيفي بما فيها طريقة التوزيع. وتنفيذ هذه الإجراءات يقتضي المعرفة التامة والدقيقة للعناصر المكونة للشبكة (وهو ما يكلف حوالي 250 000 درهما¹⁸) والأماكن الشديدة الحساسية فيها ومصادر التلوث ومساعدة السكان القاطنين، وهو شرط أساسي، مع خلق إطار خاص (هيئة) مستقل يعمل على تدبير هذه الشبكة.

والظاهر أنه، علاوة على ما ذهبت إليه بعض الدراسات، فإن واقع الحال يقضي توجيه استعمال مياه هذه الشبكة، بعد إعادة هيكلة النظام، إلى الاستعمالات ذات النفع العمومي والطابع الاجتماعي والترفيهي داخل المدينة العتيقة وبعض الأحياء المجاورة لها، ومنها، مثلا، إعادة إجرائها في الحنفيات التقليدية لاسيما تلك الموجودة عند أبواب المدينة، بناء بعض النافورات وسط الساحات العمومية (سوق الحوت القديم، الغرسة الكبيرة، السوق الفوقي، الوسعة، الصباغين، ساحة اللبادي...) وفي مختلف التربيعات (الغوزة، الياسمينية، التسفيد، الخياطين...) وتشغيلها بهذه المياه، علما أن هذه الساحات والتربيعات تعتبر من معالم المدينة ومحطات في المسارات السياحية داخل تطوان العتيقة. ومن شأن هذا الإجراء أن يزيد المدينة العتيقة جاذبية ورونقا سيساهم ولا شك في رد الاعتبار لها، مع التأكيد على أن الماء كان من العناصر الأساسية التي أُقيمت عليها هذه المدينة. ويمكن توجيه كمية من مياه هذه الشبكة إلى الحمامات والمساجد بعد إدخال إصلاحات وقائية على الشبكة ليصبح ماء طهورا وصالحا. ويبدو أن الاستغناء أو إتلاف هذه الشبكة مسألة غير بريئة في أهدافها وتحتاج إلى كثير من التوضيح، ذلك أن:

¹⁸ - S.A.E.M.- Groupe huit -1980-, *op. cit.*, p. 125.

- محور الحديث لدى المسؤولين لا ينصب على جودة هذه المياه بقدر ما هو موجه نحو التخلص من الشبكة القديمة لجهلهم قيم الإنسان والاهتمام بما هو مادي وفي الشق الذي يرضي الجهة الممولة ولا يتعارض مع مصالح اللوبيات المتحكمة في التدبير المجالي؛

- هناك خلط حاصل في عدم التمييز بين العذوبة (الحالة والذوق والرائحة...) والتركيب الكيميائي لهذه المياه قبل تلوثها؛

- المقصود بتلوث مياه الشبكة هو تلوث كثير من أجزاء قنوات النقل والتوزيع لاسيما في الأجزاء السفلى منها وليس مياه كل الينابيع الأصلية المغذية لها. وهذا الأمر ثابت للعيان في المجال بفعل تهشيم وتحطيم كثير من أجزاء الشبكة منذ الاحتلال الإسباني الأول¹⁹ (1860) إلى الآن. ومن المؤكد أن تكون بعض منابع العيون قد تعرضت لبعض التلوث، خصوصا وأن عدة أجزاء من المدينة بنيت فوق صخور كلسية بها شقوق متباينة الاتجاهات والأعماق وتحتوي على مغارات وكهوف مختلفة الشكل والعمق. ومن ثم، فإن الأمر يقضي إنجاز أبحاث دقيقة للتأكد مما إذا كانت بعض المياه المستعملة تفضي إلى مياه بعض العيون. ومعالجة هذا التلوث أمر غير مستحيل، فيكفي إقامة شبكة عمومية للتطهير السائل في المستوى الذي لا يسمح بتسربات خارجها ليكون الأمر قد عولج في نصفه، ثم تجديد شبكة النظام القديم للتوزيع وفق أسس ومقومات تجمع بين الخاصيات القديمة (التقليدية) والمتطلبات/المستجدات الراهنة.

- إن تفويض تدبير قطاع الصرف الصحي لمدينة تطوان من شأنه إعادة هيكلة شبكة التصريف القديمة بكل أرجاء المدينة، ومن ثمة فإن شركة أمانديس (Amendis)، مطالبة بالقضاء على تسربات مياه الصرف الصحي إلى هذه المنابع وغيرها، وعلى الجهات الموقعة والمجتمع المدني مراقبة ذلك؛ الأمر لا يتعلق بأي شبكة ولكن بموروث مائي حضري متميز ومن أهم مكونات المدينة العتيقة.

يعتبر النظام التقليدي لتوزيع المياه داخل المدينة العتيقة أحد العناصر القوية بالمجال الحضري للمدينة، فهو عمل جماعي متماسك العناصر والأجزاء، يشهد على خلق وإبداع وتدبير جماعي للشأن العام المحلي

¹⁹- بحيث إن أجزاء برمتها من المدينة العتيقة تم تهديمها. وقد وردت بعض التفاصيل في هذا الموضوع عند داوود (محمد) -1966- تاريخ تطوان، القسم الثالث، المجلد الخامس، ص 324-328.

المدني. كما أنه يؤرخ ماديا لذاكرة جماعية واجتماعية مجالية متماسكة المكونات، ولتراكمات معرفية طويلة عدة قرون، ساهم في وجودها واستمرار حركيتها الوظيفية كل من أنس في نفسه كفاءة ومقدرة: بناؤون وصناع تقليديون وفقهاء وعلماء ("مهندسون") وقاطنون. هذا الانسجام، بين مختلف مكونات المجال الحضري الذي كان يميز النظام القديم وعبره المدينة على هذا المستوى، فقدته هذه الأخيرة مع إقامة شبكة حديثة تشغل وفق مقومات أخرى أقل تماسكا ومعرضة لهزات عنيفة بسبب هشاشة أسسها وبنياتها²⁰. وما زاد وضع شبكة سكوندو ترديا هو غياب جهاز مشرف ومنظم، الشيء الذي عرّض النظام برتمه لكل مظاهر الخلل كما سبق.

ويعرف المجال الحضري لتطوان تناميا لمنشآت مائية أخرى حديثة، شرع في إقامتها على عهد الحماية. ويتعلق الأمر بالعناصر المكونة لشبكة التوزيع الحديثة: قنوات النقل والتوزيع ومحطات الدفع والخزانات المائية ومحطة التصفية. وتمثل هذه المنشآت المائية عناصر معمارية مختلفة عن السابقة وقيمة إضافية لها، وهذا يظهر بشكل جلي على مستوى خزانات التوزيع على سبيل المثال. ودون الخوض في تفاصيل كل عناصر الشبكة الحديثة وما يتصل بالجانب التقني وطرق التشغيل وغيرها، نشير إلى أن أهم هذه العناصر تتمثل في خزانات التوزيع.

تعود بداية إقامة هذه المنشآت إلى عهد الحماية الإسبانية. ومنذ وهي في تزايد مستمر لاسيما في العقدين الثامن والتاسع من القرن الماضي. وأصبحت المساحة التي تشغلها في تزايد مستمر ولها مكانة في الوسط الحضري للمدينة. وهي تختلف فيما بينها من حيث الشكل والسعة... ونميز فيها من حيث تاريخ بنائها بين نوعين:

• خزانات توزيع المياه من عهد الحماية:

تتميز هذه الخزانات بمحدودية عددها، فمنها ما تم ترميمه وتكييفه لاستعمال واستغلال أفضل وأنسب (خزان درسة) ومنها ما تم الاستغناء عن استعمالها مع الاحتفاظ بها كتلك المجاورة للمجموعة السكنية أبي

²⁰ - Saïd Mouline - «Traditions en perdition et contemporanéités sans identité», in: «Sciences sociales et phénomène urbains dans le Monde Arabe», (Sous la direction de Mohamed Naciri et André Raymond), Fondation du Roi Abdul-Aziz Al Saoud pour les Etudes Islamiques et les Sciences Humaines, Casablanca, 1977, p.224.

شعيب الدكالي (Casa Bloque) من حي زيانة، أو مثيلها بشارع خالد بن الوليد. وإذا كان خزان درسة يعمل على تزويد السكان بالماء الصالح للشرب، فإن الخزانات الثلاثة الأخرى أُقيمت أساساً لتزويد القطار الذي كان يربط بين تطوان وسبتة ومحطته وبعض الدور وشاحنات نقل المياه بالماء الضروري.

• خزانات توزيع المياه لما بعد الاستقلال:

ويبلغ عددها حالياً حوالي 15 منشأة موزعة بين مختلف أجزاء المدينة لاسيما في الأجزاء العليا منها. ونظراً لأهمية هذه المنشآت، فإنها في طور خلق بنية وإرث هيدروليكيين متينين.

فإذا كانت هذه المنشآت تزيد المجال غنى في محتواه المعماري وتعتبر من خصائص العمران بالمدن ذات المواقع المتضرسة فيمكن القول إنها تُكسبه هشاشة وضعفاً تستدعي تشديد الحراسة عليها ومراقبتها بانتظام لأهميتها في الحياة اليومية لمجموعة عريضة من السكان، على خلاف المنشآت المائية التقليدية.

2- منشآت ومرافق مائية أخرى تقليدية (غير تابعة للنظامين سالفين الذكر)

يدخل ضمن هذا النوع منشآت ذات أهمية محدودة ولكنها متضمنة لكثير من عناصر المعمار المتميز، وهي لا تنتمي إلى نظامي التوزيع القديم والحديث. وعادة ما يتم تشغيل كل منشأة باستقلال عن الأخرى. كما أنها لا تستمد مياهها من نفس المصدر ولكن من مصادر مختلفة ومتنوعة.

2-1- مَطْفِيات²¹

تطلق على خزانات أرضية في الغالب أو نصف أرضية، تقام لخزن وحفظ مياه الأمطار داخل الدور السكنية. وتأخذ في الغالب أشكالاً هندسية مستطيلة أو دائرية أو اهليلجية وتختلف من حيث العمق والاتساع. وأهم المواد المستعملة في بنائها نجد الحجر والرمل والتُّفنة والجير والخشب.

21- مطفيات (مفرد مطفية): هي تحريف لكلمة تُطْفِيات، مفرداً نُطْفَة: "القليل من الماء يبقى في دلو أو قربة ونحوهما..."، حسب تعريف المنجد في اللغة والأعلام -1986-، ص 816. "وتجمع النطفة على نطاف، وهي ما يجتمع من ماء المطر في موضع..."، حسب ما ورد عند بنعبد الله (محمد بن عبد العزيز) -1996- الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي، الجزء الرابع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص 226. (وتسمى بالمواجل في المشرق (السعودية) والكريف باليمن).

وتحتل مكانا غير مفتوح لعامة الناس داخل المجال المبني للمسكن أو بإحدى زوايا الفناء. "ومكانتها لأهل البيت أشبه ما تكون بمكانة محراب مسجد بالنسبة للمسلمين"²². وتبنى فوق سطح الأرض أو على عمق ضعيف (بضعة أمتار) وهي ليست مفتوحة ولا عارية كما هو الشأن بالنسبة للمواجل. يتخذ لها باب صغير يسمح بغرف المياه والنفوذ إليها عند الضرورة وأثناء الصيانة. وضمانا لحسن الاستفادة من مياهها، فإن الصيانة والتنظيف اللازمين والشاملين لسطح المبني المحتوية لها وقناة تصريف مياه الأمطار من على السطح نحوها قبيل سقوط المطر، أمر ضروري.

2-2- آبار وأجباب

تعتبر هذه النقط المائية كثيرة الانتشار بالوسط الحضري للمدينة. فالأجباب تُبنى تحت سطح الأرض لتجميع مياه الجريان الباطني في عمق محدود جدا (1-3 متر). تعرف تركزا ووجودا في المدينة العتيقة على خلاف الآبار. أما الأخيرة، فتُبنى تحت سطح الأرض لتجميع مياه الجريان الباطني، وتتميز بعمق أكبر من الأجباب وبانتشار أوسع من الأولى داخل المدينة. ويتخذ معظم الآبار شكلا دائريا. أما الأجباب فتأخذ أحيانا أشكالا مستطيلة.

ويجب التنبيه إلى بعض الخلط الحاصل في التمييز بين الجب والبئر والعين بين العناصر الوافدة والقاطنة لهذا المجال بفعل الاختلاف في التسمية/الاصطلاح: "بل حومة العيون والأترانكات كلها عيون نابعة بحيث مهما حفر الإنسان نحو مطر [متر] من الأرض وجد عينا من الماء أينما حفر"²³. والمراد بالعين الأخيرة هنا هو الجب. فعين الماء لا تحتاج إلى الحفر حتى تجري مياهها، إذ من المعروف أنها تتدفق على الأرض بشكل طبيعي. كما أن كلمة الجب بالنسبة للبعض لا تعني شيئا ويطلق اسم البئر على نفس نقطة الماء. والمؤسف له أن هذا الخلط/الخطأ تم تدوينه في بعض الوثائق الرسمية²⁴ المعتمدة في الأبحاث ويتم التعامل معها على أنها معلومات سليمة وصحيحة.

22- حسب تعبير أحد المستجوبين.

23- الرهوني (أبو العباس أحمد)، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، الجزء الثاني، ص 21، (مخطوط).

24- من هذه الوثائق يمكن الإشارة على سبيل المثال لا الحصر إلى ما ورد في سجلات المكاتب البلدية للصحة بالنسبة لأنواع النقط المائية المعالجة. فكثير من المعدات سميت بالعيون أو الآبار أو عكس ذلك. ومرد هذا إلى محدودية تكوين العنصر البشري الذي أوكلت إليه مهمة المعالجة.

2-3- رحى المياه

تتعدد هذه المنشآت وبقاياها بمدينة تطوان ومحيطها المجاور، شأنها في ذلك شأن كثير من مناطق المغرب وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط. ويفسر هذا على المستوى المحلي بتوفر شروط إقامة هذه المنشآت: وفرة المياه، طبغرافية مناسبة، سيادة زراعة الحبوب بالمنطقة، نمط التغذية القائم على استهلاك الحبوب... فتوفر هذه الشروط دفعت الإنسان إلى إقامتها واستغلال قوة الماء في تحريكها لطحن الحبوب والمواد التي تدخل في بعض الصناعات الحرفية...

وعلى الرغم مما هو معروف من أن هذه المنشآت المائية لا تقام إلا على المجاري المائية المهمة أو الينابيع ذات صبيب وافر وقوي، فإن مدينة تطوان العتيقة كانت تحتوي على منشأتين داخلها (بالملاح وقاع الحافة) وخمس أو ست أخرى بالجنبات السفلى بين باب الرموز وباب العقلاء²⁵، وكانت تكفي لطحن حبوبها²⁶، "ولكن ذلك كله لا يُغني عن أرحاء كيتان ويرغيث. ولذلك إذا انقطع الطريق بينهما وبين البلد [المدينة] بمطر أو فتننة، يقل الدقيق جدا... ويكثر الزحام على بقية الأرحاء المذكورة²⁷".

وتتعدد وجود هذه المنشآت خارج المدينة خاصة بمداشر كيتان (حوالي 20 وحدة)²⁸ ويرغيث وبوسملال وسمسة مرده لوجود المياه الغزيرة، لدرجة أن بعض الأودية النازلة شرق دوار بوسملال عُرف بين السكان باسم واد الرحي. وتحريك الأرحية كان يتم بمياه الأنهار الدائمة الجريان (كيتان، بوسملال، سمسة...)، والتي تستمد مصدرها من عيون التكوينات الكلسية، إلا التي كانت تقع في القسم الأسفل المباشر للمدينة، فإنها كانت "تدور بالماء المضاف -المستعمل- المنحدر من المدينة إلى فدادين الخضر ثم إلى النهر [مرتيل]...²⁹"، وذلك حتى بداية القرن الماضي. وتشبه هذه الرحي، من حيث شكل بنائها وتركيب عناصرها الداخلية، مثيلاتها في العديد من دول البحر الأبيض المتوسط وكذا من حيث طريقة مد الدوار (المحرك) بالماء. ذلك أن هذا الأخير -وهو في وضعية أفقية-

²⁵ - Joly (A.) & Autres -1912 – Archives marocaines, n°18, pp.215.

²⁶ - داوود (محمد) -1993- تاريخ تطوان، الجزء الأول، ص 112.

²⁷ - الرهوني (أبو العباس أحمد)، الجزء الأول، مصدر مذكور، ص 178.

²⁸ - Joly (A.) & Autres -1912 – *op. cit.*, pp. 215 .

²⁹ - داوود (محمد) -1965- تاريخ تطوان، القسم الثالث، الجزء الثاني، ص 308.

يتلقى الماء من قناة ذات انحدار قوي تنتهي إليه على علو يقارب خمسة أمتار ثم تصب فوقه بشكل شبه عمودي، الشيء الذي يعطي لهذا الدوار القوة الكافية لتحريك الرحى والاشتغال في الظروف المطلوبة. ولمزيد من التفاصيل، نشير إلى أن ملكية هذه الأرحية عادة ما كانت تنقسمها عدة جهات أو أفراد³⁰، بنسب متفاوتة فيما بينهم، بحيث يحق لكل واحد من المالكين أن يتصرف في حظه (جزء أو مجموعة من الأجزاء، متفق عليها) كما يشاء في حدود عدم إلحاق الضرر بالآخرين. وفي هذا السياق قام أحدهم سنة 1112 هجرية (1700) ببيع "جميع الواجب له في راحة المصمودي أسفل المصلى من تطاوين في أعلى الحافة المجاورة للفرن وقدره نصف يوم في الجمعة [الأسبوع]... بثمن خمسة عشر مثقالا دراهم تاريخه...³¹". وتعتبر هذه الوضعية (تعدد المالكين) السبب الرئيسي في الاستغلال غير المباشر لها جميعها، وأحد الأسباب المباشرة في اختفاء كثير منها.

ومعظم هذه الأرحية توقف منذ زمن عن الاشتغال، وقليلة هي التي ما زالت تُشغل خلال بعض الفترات من السنة، بل إن كثيرا منها اندثر ولم يبق منها إلا بقايا فقط. ومهما يكن، فإن ما بقي من الرحى - ويتم تشغيلها حينما تتوفر الظروف - يبدو عبارة عن بنايات بسيطة وهزيلة، ولكنها توفر معلومات وعناصر دالة لفهم دقيق لجانب من الواقع الاجتماعي والاقتصادي... للمدينة ونواحيها خلال عدة قرون، وذلك من خلال القراءة المتمحصة في العناصر المكونة لها والمعلومات المقدمة من قبل مالكيها. واعتبارا لأهميتها، فإن واقع الحال يقضي بصيانة وترميم جملة منها واستثمارها بما يخدم التنمية السياحية والثقافية بالمنطقة كلها. بل وقد يكون من المناسب تخصيص جناح أو جزء منه في أحد المتاحف لجمع بعض ما تبقى من أجزاء أرحية مهدمة أو في طريق ذلك.

2-4 - سواقي السقي وقنواته

³⁰ - «Le moulin du Mellah appartient au Makhzen pour un demi et pour l'autre moitié aux Chorfa Bakkaliya, Trois des moulins très près de Bab Erremouz et ceux de l'oued Kitane appartient pour une part (de 3/4 à 5/6) à diverses copropriétaires, et pour les 1/4 ou 1/6 restant aux habous de Jéma Elkébir, située aux droits d'autres petites moquées», in: Joly (A.) & Autres -1912- *op. cit.*, pp. 215-220.

³¹ - داوود (محمد) -1965- مصدر مذكور، ص 308.

وعلاوة على ما سبق، فإن المجال المتحدث عنه كان يحتوي ولا يزال على عناصر أخرى من الموروث المائي ارتبطت بالقطاع الفلاحي ويتعلق الأمر بما تبقى من قنوات الري القديمة بالمجال الحضري أو ضمن ما تم ضمه إلى المدار البلدي بعد التقسيم الجماعي لسنة 1992، وهي عديدة في المجال. وبالوقوف على أمثلة محددة يمكن الوقوف على بعض خصوصيات وغنى هذا النوع من الموروث المائي. ومن خلال أبحاث متعلقة بها ومتخصصة يمكن الوصول إلى بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعقارية... التي من شأنها أن توضح جوانب من تاريخ المنطقة.

ومن الأماكن التي اشتهرت بالسقي على هوامش المدينة، وما زالت بعضها، نجد حوض كيتان الذي اشتهر في تاريخ المنطقة ببعض السواقي وطرق تقسيم المياه الفلاحية، وكذا مداشر الزرقاء و**بُوسَمَلال** و**دار الزكيك** و**سَمْسَة** وقسم من سهل مرتيل، حيث كانت تقع قرية اشتهر سكانها بالنشاط الفلاحي القائم على الري. بحيث إنه "كانت لهذه القرية السوسية أهمية حسبما تدل على ذلك مجاري للمياه، مبنية على قواديس بناء متقنا، موجود أثرها على مسافة ألف متر من منبع الماء ولا زال ذلك قائما إلى الآن"³²[منتصف العشرينيات من القرن الماضي].

ومن المؤكد أن سواقي وقنوات الري التي عرفتها المجالات المسقية كانت تحتوي على عناصر معمارية تباينت قيمتها وشكلها عبر التاريخ، غير أن تراجع النشاط الزراعي بكثير من المدارات المعروفة وضمها السقي أفقد المجال كثيرا من الجوانب المادية لهذا الموروث.

إن الحفاظ على هذا الموروث المائي المتعدد العناصر أمر تفرضه الضرورة الحضارية ومستوى الإحساس والقناعة بالانتماء إلى المجال وبالقيمة المعنوية لنوع الإرث. ويبدو من المناسب التعرف على طبيعته وتوطينه خرائطيا وتوثيقه أدق ما يمكن بهدف استثماره وتوظيفه في ما يخدم المنطقة بكاملها وفق ما هو ممكن.

³² - الرهوني (أبو العباس أحمد)، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، الجزء الأول، ص 123، (مخطوط).

3- الموروث المعماري المائي بالمرافق والمجالات العمومية

تتعدد المرافق والمجالات العمومية³³ المحتوية على إرث حضاري ومعماري متميز ومتصل بالماء بالمجال المدروس. وتختلف فيما بينها باختلاف أهمية ودرجة وطبيعة الاستعمال. وتتمثل أهم هذه المرافق المحتوية على موروث مائي، قل شأنه بالمجال أم عظم، في المؤسسات الدينية والحمامات التقليدية والميضآت والسقايات والنفورات العمومية وغيرها.

3-1- المؤسسات الدينية

غير خاف أن معظم هذه المؤسسات تحتوي على مكان خاص لوجود الماء (مراحيض وأماكن الوضوء). وانطلاقاً من التصور العام لهذه الأمكنة ونوع الخدمة المقدمة، فإن عناصر المعمار داخلها تتباين في شكلها الهندسي وجزئياتها المعمارية وغيرها لاسيما بين أقدمها وأحدثها. ذلك أن هذه الأماكن في المؤسسات الدينية التي ما زال مياه النظام القديم يجري في الأماكن المخصصة لها، تتضمن خصوصيات في هذا الشأن، ومن أهم هذه المؤسسات يمكن ذكر ما يأتي:

- مسجد سيدي على بركة، بالسوق الفوقي ذي صهاريح ثلاثة دائمة الجريان توفر كل المياه الضرورية للوضوء؛
- مسجد السوق الفوقي، ويحتوي على صهريح واحد يستقبل صبيب مياه مهم؛
- مسجد سيدي الصعيدي، ويتوفر على صهريح كبير ونافورة يستقبل من المياه ما يكفي وبشكل منتظم وإن كان قد عرف خلال بعض السنوات تعثراً وخطلاً كبيرين، ويصرف ما فاض عن الاستعمال في "القنا" الملاصق للبنائية؛
- مسجد الجامع الكبير، ويحتوي على صهريجين كبيرين يؤمّنان كل الاستعمالات إلى جانب نافورة كبيرة وسط الفناء؛

³³ - ليس بالمعنى الدقيق والمفصل الوارد عند:

Nabil Beyhum & Jean-Claude David, «Du souk à la place, du citoyen au citoyen. Espaces publics dans les villes arabes (au Moyen orient)», in: «*Sciences sociales et phénomène urbains dans le Monde Arabe*», (Sous la direction de Mohamed Naciri et André Raymond), Fondation du Roi Abdul-Aziz Al Saoud pour les Etudes Islamiques et les Sciences Humaines, Casablanca, 1977, pp: 193-202.

- مسجد الباشا، ويتوفر على ثلاث صهاريج كبيرة، غير أن موقعه بسافة شبكة التوزيع بالقسم الغربي من المدينة العتيقة جعله في السنوات الأخيرة يعرف مشاكل جوهريّة وخطيرة تتمثل في تلوث مياهه وتوقفها أحيانا بفعل كثرة الاستعمال في عالية الخط/الخطوط المفضية إليه؛

- مسجد العيون، ويحتوي على صهريج كبير بكمية مياه مهمة للغاية تجعله يزود بشكل كافي الصهاريج الصغيرة الموجودة لميضات نفس المؤسسة.

وهناك مجموعة من المؤسسات الدينية، وإن كانت قليلة، تستعمل مياه النظامين معا: مياه الوكالة ومياه سكوندو. ومن هذه يمكن ذكر:

- مسجد الزاوية الحراقية (قبالة باب المقابر)، ويتوفر على بئر عميق نسبيا تستعمل مياهه للوضوء والتنظيف أساسا وتستعمل مياه الوكالة في غير ذلك. ويرجع السبب في الربط بشبكة التوزيع الحديثة إلى ما يشوب مياه سكوندو من قلة في الجودة؛

- مسجد الزاوية التيجانية بزقة المقدم، وعلى الرغم من توفر هذه المؤسسة على صهريج كبير (عند المدخل) فإنها تعاني من النقص الكبير في تزويده من مياه سكوندو ولعل هذا هو السبب الرئيسي في قرار الربط بمياه شبكة توزيع مياه الوكالة؛

- مسجد لوقش بين زنقة المقدم والغرسة الكبيرة، ويتوفر على ثلاث صهاريج كبيرة كان الماء يجلب إليها بما يغطي الحاجيات، غير أن ما طال الشبكة القديمة من عبث جعل صيبب الماء المستقبل يتراجع ويحقق عجزا لم يكن من الممكن تداركه وتغطيته إلا بربط المؤسسة بشبكة التوزيع العمومية التي تديرها وكالة التوزيع، لاسيما وأن مياه النظام التقليدي التي ترد عليها أصبحت ملوثة وتتعرض من حين لآخر للانقطاع جراء ما تعرفه المجالات القريبة لها من إصلاحات وترميمات، منها ما هو مرخص ومرئي ومنها ما يتم بعشوائية وبشكل مستتر.

وتجدر الإشارة إلى أن نقط الماء هذه في كثير منها يُتخذ لها مكان خاص مجاور (كما سيأتي) وأن غالبية التصريحات والأحاديث حول استعمال مياه سكوندو بالمؤسسات الدينية تنص على أنها مياه غير صالحة للشرب ولكنها صالحة فيما دون ذلك. فتعدد هذا الموروث المتصل بالماء

داخل مؤسسات العبادة هذه، إلى جانب عناصر ومكونات معمارية أخرى، زادت من القيمة المعمارية للمؤسسات المحتوية عليها. غير أن كثيرا من عناصر هذا الموروث المائي تتعرض باستمرار للإهمال نتيجة عدم الوعي بقيمتها التاريخية والثقافية والحضارية...

2-3- الحمامات والرشاشات العمومية

نظرا لوظيفتها الاجتماعية والصحية وأهمية عنصر الماء في سيرها الوظيفي وحيثيات أخرى متعددة، فإن هذه المنشآت، لاسيما الحمامات التقليدية، روعي في بنائها ومعمارها وتنظيمها الداخلي مواصفات ومقاييس محددة أكسبتها، مع مر الزمن، أهمية وقيمة لا تتوفر في غيرها. وتحتزن هذه الحمامات التقليدية معلومات في غاية الأهمية في مختلف الميادين. وتعتبر القديمة منها (داخل المدينة العتيقة) أكثر قيمة في هذا الشأن، وأهمها:

- حمام سيدي المنظري: يعرف لدى السكان بحمام استيتو (أي الصغير) أو حمام البلد (لموقعه في حومة البلد). ويقع بين الزاوية الرئيسية وساحة الوسعة في ممر جد ضيق وهو من بناء سيدي المنظري -قرب مسجد القصبية- ومن ثم فإنه يعتبر أقدم حمام بتطوان.³⁴ وقد عرف نشاطه تعثرات عدة توقف لمدة طويلة عن الاشتغال خلال القرن الماضي، وبعد إجراء عمليات ترميم وإصلاحات داخلية استعاد نشاطه؛

- حمام السوق الفوقي: يقع جنب ساحة "السوق الفوقي" من جهة الغرب بحومة البلد، متصل بالقوس الذي يحمل اسمه، وهو ثاني أقدم حمام بالمدينة. بُني في حدود عام 1000 هجرية (1591 م). وتم تجديده داخليا أكثر من مرة، وكان يعتبر من أكبر الحمامات بالمدينة وأحسنها، لاسيما وأنه كان "به مغطس من حجر نافع جدا للأمراض الباردة"³⁵؛

³⁴ - قصد الاطلاع على بعض التفاصيل حول حمامات المدينة القديمة، يمكن الرجوع إلى عمدة الراوين في تاريخ

تطوان، لصاحبه الرهوني أبو العباس أحمد، الجزء الثاني، ص 4-5.

³⁵ - الرهوني (أبو العباس أحمد) - عمدة الراوين في تاريخ تطوان، الجزء الثاني، ص 4 (مخطوط).

- حمام العيون: يسمى كذلك بحمام القاضي أو حمام ابن قريش، نسبة إلى أحد أبناء هذا الأخير وكان قاضياً. تم بناؤه في أواسط المائة الثانية عشرة للهجرة (نهاية القرن 17 وبداية القرن 18 الميلاديين)؛
- حمام مدينة: بُني من طرف أحد أولاد مدينة³⁶ في حدود سنة 1200 هجرية (1785 م) بزنقة أحفير (حومة المطامر) من حي البلد. وبدوره عرف عدة إصلاحات داخلية، أحدثها كانت في السنوات الأخيرة من القرن الماضي؛
- حمام أمحلي: يقع بين زنقتي الرباحي وفندق النجار من حومة الساقية الفوقية. بناه أحد التجار الذين وفدوا على المدينة من فاس واستقر بها؛
- حمام اليهودي (نسبة إلى اليهودي باروخ قرياط): تم تشييده حوالي سنة 1350 هجرية (1931 م) في المكان الذي كانت تحتله دار الدباغة، من حومة الأترانكات غير بعيد من باب التوت، بين زنقتي رأس الرخامة وعبد اللطيف المدوري. ويتوفر منذ القديم على جناحين للذكور والإناث، على خلاف ما هو معمول به في باقي الحمامات المذكورة؛
- حمام ابن عبد الوهاب: ويقع بزنقة المطمار في الروض المعروف بروض حجاج من حومة البلد؛
- حمام الرهوني: يوجد بالسانية قرب مسجد البنات، من حومة العيون. وهو من الحمامات التي تم بناؤها في تاريخ متأخر من تعمير المدينة (الأربعينيات من القرن الماضي)؛
- حمام القيرواني: يقع بزنقة الوطية من حومة العيون، وتم تشييده سنة 1353 هجرية (1933 م)؛
- حمام طنانة: بني بحومة العيون جوار مسجد سيدي علي بن مسعود حوالي سنة 1361 هجرية (1942 م)؛
- حمام غويلة: يقع بزنقة المطمار من حومة البلد؛
- حمام بوشتي: يقع بزنقة المريبطو قرب باب النواذر.

36- اسم لأسرة أندلسية.

هذا، إلى جانب حمامات أخرى ذات أهمية أقل. وتتشترك كلها في أكثر من قاسم مشترك. فمن خلال تاريخ بنائها، يلاحظ أنها بنيت كلها قبل الاستقلال. وتعتبر من المعالم التاريخية والمعمارية القديمة جدا بالمدينة، بحيث إن بعضها (حمام سيدي المنظري) عمر حوالي خمسة قرون. علاوة على أنها تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا على المستوى المساحي والبنية الداخلية والشكل الهندسي والمضمون المعماري والمواد المستعملة في البناء الخ. ونظرا لاختلاف فترات بنائها، فإنها تحتزن معلومات تاريخية ومعمارية قيمة، ربما لا توفرها مصادر أخرى، حول وظائفها الصحية والاجتماعية وغيرها. ومن هنا، فإنها تُكون بحق مصدر استقاء معلومات تكشف عن وجه آخر من التاريخ الاجتماعي والرسمي للمدينة وتساهم بخصوصياتها في إضفاء طابعها التاريخي العريق على هذه الأخيرة.

3-3- الميضآت/المتوضآت العمومية³⁷

يتعلق الأمر بمرفق عمومي ضروري الوجود في المجالات العمومية؛ عادة ما يحتاج إليه الإنسان خارج البيت، وارتياحه قصد الوضوء. وفي غياب عنصر الماء تفقد هذه النقط وظيفتها. ونشير إلى أنها تختلف عن أماكن الوضوء بالمساجد، التي بنيت منذ إقامة الحماية، والتي تُفتح أبوابها فُيُبل وقت الصلاة وتُغلق بعدها. فالميضآت/المتوضآت، على عكس ذلك، تظل مفتوحة أمام من هو في حاجة إلى خدمتها: عموم المارة، المشتغلون في محلات مختلف القطاعات وغيرهم. ومعروف أنها تقع عادة بأماكن غير بعيدة من مؤسسات العبادة. وإذا كان وجودها ارتبط في الغالب بالمؤسسات الدينية، فإن معظمها لم يكن يندرج وينضوي ضمن نفس البنيات لاعتبار "أنها كانت دائما شائنة لعمارة المسجد شائبة لنظافته"³⁸.

وما يجب التأكيد عليه هو أن هذا النوع من المرافق العمومية يحتاج إلى وفرة في المياه واستمرارية الجريان بها. ويعتبر هذا العامل أحد

³⁷ الميضآت: "اسم مكان الوضوء، وهو في عرف أهل المغرب اسم جامع لمكان التغطوظ فالوضوء، ويسمى أيضا مطهرة أي مكان الطهارة، وإذا كان خاصا بالتغطوظ سمي (بيت الماء)، وكلمات: المرحاض والكثيف والمستراح كلمات عربية طرأت حديثا على ألسنة الناس". عن محمد بن القاسم الأنصاري السبتي وتحقيق عبد الوهاب بن منصور -1969- اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، المطبعة الملكية، الرباط.

³⁸ -بنعبد الله (محمد بن عبد العزيز) -1996- الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي، الجزء الرابع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص 269.

الأسباب الرئيسية لتوقف عملية بناء هذه النقط المائية لعدم وجود جهة تتكفل بتغطية تكلفة استعمال المياه. أما التي لازالت تؤدي وظيفتها فإنها تستعمل مياهها غير التي توزعها الوكالة المستقلة الجماعية لتوزيع الماء والكهرباء، أي مياه نظام "سكوندو" (إلا واحدة بحي سيدي طلحة). ومن ثم، فإن بقاءها مرهون بالحفاظ وبقاء هذا النظام المهدهد بالزوال. وعلاوة على ذلك، فإن ما يعرفه المجال من تحولات وما يرافقها من ظهور محلات خاصة مفتوحة لعموم الناس (مقاهي، مطاعم...) تحتوي على أماكن وجدت لنفس الغرض، قللت من دور الميضآت/المتوضآت لاسيما وأنها تبدو في وضع صحي أحسن من الأولى. وعلى الرغم من عدم احتواء كثير منها على خصوصيات فنية معمارية تُذكر، فإنها تعتبر لازمة ضرورية لمؤسسات العبادة، ووظيفتها تقوم على استعمال كبير للمياه، لذلك كانت جميعها موصلة بمياه الشبكة القديمة بالنسبة للتي تقع في المدينة العتيقة وبالعداد الخاص بالنسبة لغيرها، إذا لم تكن تعتمد على مصادر مائية أخرى.

ومهما يكن من أمر، وعلى الرغم مما آلت إليه نقط الماء هذه وموقف المسؤولين وعموم الناس منها، فإن وجودها وبقائها أمر مرغوب فيه. غير أن وضعها الحالي يدعو إلى عناية واهتمام أكثر بها على كل المستويات. وقد يكون من الصعوبة الإجهاز عليها والعمل على إتلافها نهائيا من المجال لأنها، على الأقل، تؤرخ لمرحلة متميزة من التعمير الإسلامي للمدينة.

3-4. نافورات الساحات العمومية وأحواض بعض الحدائق

تجدر الإشارة إلى أن المدينة تحتوي على العديد من الدُور المتوفرة على نافورة (خَصَّة) أو أكثر، ومنها من يحتوي على روض به حوض ماء غير مفتوح للجميع. وكلا العنصرين لهما حضور كبير في الدور التقليدية للأعيان وذوي الجاه وفي حياة الأسر المعنية، بل كانا يعتبران من عناصر التزيين بالدور المذكورة، بحيث إنه عادة ما كانت "في وسط الفناء توجد خَصَّة إذا كانت الدار لشخص صاحب حيثية...³⁹"، بهدف الترويح عن النفس وتلطيف الجو الداخلي للمسكن. فقصر الباشا أحمد⁴⁰، مثلا، الذي كان يقع بين ساحة المشور (ساحة الفدان قديما) وزنقة الحدادين من حومة

³⁹ - داوود (محمد) - 1963- تاريخ تطوان، القسم الأول من الجزء الثاني، الطبعة الثانية، دار كريمايس للطباعة، تطوان،

ص 63.

⁴⁰ - تم بناؤه خلال الربع الثاني من القرن الثاني عشر للهجرة.

الأترانكات، كان يحتوي على "ساحة مربعة واسعة زينت جميع جوانبها بالأبواب، وفي وسط هذا المربع تقوم خصبة من المرمر تتهمر منها المياه فترطب جو المنزل"⁴¹.

غير أن ما يعنينا في سياق هذا الموضوع هو تلك المنشآت التي توجد في المجالات العمومية، لما لها من خصوصيات معمارية واعتبارها موروثا مائيا عموميا ذا مكانة متميزة في المجال الحضري. وعلى الرغم من قلة عددها في المجال الخارجي العمومي وتشغيلها في المناسبات فقط، فإن لها مع ذلك مكانة وحضورا قويين في نفسية السكان لاسيما أثناء تشغيلها وأهمية كبيرة في هيكلة وتنظيم حركات السكان داخل الحي الذي توجد فيه. وكيفما كان الحال، فهي تعتبر من جملة مكونات الإرث الهيدروليكي البارز بالمدينة، ويتعلق الأمر بما يأتي:

نافورة وحوض ماء وصهاريج حديقة مولاي رشيد (روض العشاق سابقا)

تجدر الإشارة في البداية إلى خصوصية العناصر المكونة لهذه الحديقة كتفرداها بغنى وتنوع أشجارها، واحتوائها لموروث مائي كان له شأن كبير في السابق، وإليه تفضي بعض المغارات التي بنيت فوقها المدينة العتيقة، الشيء الذي جعل منها أهم وأقدم متنفسات المدينة وأقربها إلى المركز. وعلى الرغم مما طال الموروث المائي من إهمال بل وخراب بعض أجزائه خلال فترة زمنية بعد الاستقلال لاسيما قبيل وعلى عهد آخر مجلس بلدي لتطوان قبل تقسيمها إلى بلديتين، فإن أبسط عمل صيانة وترميم سيعيد لها هالتها ويضمن لها بقاءها. وعلى الرغم من بعض أعمال الإصلاح والصيانة التي عرفتها الحديقة في السنتين الأخيرتين فإنها لم تشمل بقايا النافورة والصهاريج وحوض الماء.

النافورة العمومية بساحة مولاي المهدي

أحدثت هذه الساحة الممتدة على حوالي 2,450 م² سنة 1936. وتتوسط الحي المركزي للمدينة، وإليها تنتهي (أو منها تفرق) ستة شوارع تعتبر من أهم المحاور الطرقية بالحي المذكور. وأنشئت النافورة داخل الساحة سنة 1974 في إطار إعادة الهيكلة لها بمساهمة الدولة الإسبانية. وجعل الماء

⁴¹- داوود (محمد) -1963- تاريخ تطوان، مصدر مذكور، ص 189.

عنصرا أساسيا في تزيين المكان والفضاء الاجتماعي (الموسيقى والألوان). ويتم تشغيلها في معظم المناسبات والأعياد الوطنية فقط.

النافورة العمومية بساحة المشور

تعتبر هذه أكبر ساحات المدينة بعد ساحة مقر الولاية الحديث. كانت تُعرف بساحة الفدان قبل الحماية ثم ساحة اسبانيا خلالها فساحة الحسن الثاني بعد الاستقلال ثم ساحة المشور السعيد حاليا. على غرار الساحة السابقة، تم إعادة هيكلتها سنة 1987، وجُعل فيها الماء عنصرا أساسيا في تزيين الفضاء الاجتماعي من خلال تدفقه في أربع نفورات تعلو فوق السطح بحوالي 10 أمتار، هذا إلى جانب تدفقات مائية أخرى من مستوى سطح الأرض، تجعل من عناصر التركيبة الهيدروليكية مجتمعة تحفة فنية في غاية الإتقان والإبداع، لاسيما حين تشغيلها. ويتزامن ذلك مع المناسبات والأعياد)، غير أن هذه اللوحة لن ترقى إلى مستوى ما كانت تجسده سابقتها لنفس المكان. ويجدر القول أن عملية الإعداد وإعادة الهيكلة في كلا الساحتين (المشور السعيد ومولاي المهدي) جاءت بتوجه أحادي: الإجهاز على ميراث شجري قديم قدم الساحة نفسها.

"نافورة" ساحة الحمامة البيضاء: تمتد الساحة في شكل دائري على مساحة 100 م²، وتقع عند بداية شارع الحسن الثاني من جهة مدخل المدينة (طريق طنجة)، ويتوسط الساحة رمز المدينة (حمامة بيضاء) ويعود تاريخ بناء الساحة والنافورة إلى سنة 1986. وبفعل سوء استعمال النافورة توالى احتجاجات بعض المتضررين وكانت نتائج ذلك أنها لا يتم تشغيلها إلا نادرا وفي حالات خاصة. ويرجع "الخلل" إلى أن الماء المتدفق من النافورة يكون ذا قوة غير مناسبة لاسيما أثناء هبوب الرياح، الشيء الذي يعيق حركة السير والمرور على جنبات الساحة. هذا علاوة على أن هذه الأخيرة غير مهيأة بفتحات لتصريف المياه المتساقطة داخل الشبكة العمومية مما يؤثر على أكثر من مستوى.

والظاهر أن السقايات العمومية (لُقنا) في المدينة القديمة كانت تقوم مقام النفورات العمومية بالحي الإسباني القديم، على الأقل فيما يتعلق بالعمل على جريان الماء الشروب بالمجال العمومي الخارجي (بعض الأماكن والساحات العمومية) مع الاختلاف في دلالة التمثلية.

لقد حظي الماء بدور مميز في رونق عمران المدينة سابقا (قبل الاستقلال)، بحيث إن حضوره كان بارزا في النسيج الحضري من خلال النפורات والسقايات العمومية، أكثر من باقي العناصر الأخرى كالمجالات الخضراء مثلا، أو ممشى أو حدائق أو غيرها. وكان له دور الريادة على مستوى التأثيث الداخلي للدور التقليدية. كما أن اختيار أماكن وجود نقط الماء على اختلاف أنواعها واستعمالاتها داخل المساكن كانت من المواضيع التي تثير جدلا ونقاشا كبيرين لدى الأسر المقبلة على بناء مساكنها الخاصة.

يستنتج مما سبق أن الموروث المائي داخل المجال الحضري اتخذ طابعين اثنين. يتمثل الأول في مختلف التجهيزات ذات الطابع النفعي الضروري، في حين يكوّن الثاني عنصر تزيين (décor) للمجالين الخاص والعام ومجالا للخلق والإبداع وهو ما يبرز أهمية ثقافة الماء في هذا المجال. وتزداد هذه الأهمية بالكشف عن جوانب أخرى من علاقة الإنسان بهذا العنصر.

خاتمة

سمحت مقارنة موضوع الموروث المعماري للماء في تطوان بالوقوف على عدة خصائص تتمثل في انفراد هذه الحاضرة بنظام توزيع تقليدي قل مثيله في المدن المغربية وغيرها على مستوى العناصر المكونة له، وعلى أهمية التجهيزات وتنوعها بالنسبة للشبكة الحديثة، وتعدد عناصر الموروث المائي المبني داخل المجالين العمومي والخاص.

وإذا كان تعدد المنشآت المائية ومختلف التجهيزات المرافقة تبرهن على الخصاصة وتزايد الحاجيات إلى مادة الماء، فإن الأمر في هذا المجال يكشف عن تنوع الموارد المائية وقدرة الإنسان على "تطويع" هذا العنصر وتكييف استغلاله حسب الموقع والحاجة ومقتضيات الاستعمال الأمثل.

غير أن ما راكمته المدينة من تراث معماري هيدروليكي وتجارب في الموضوع مهددة بالزوال تحت تأثير أكثر من عامل وأن كثيرا من المعالم

لا يمكن إعادة إنتاجها. وبذلك يتم فقدان التدريجي لأجزاء من رسم مسار حياة هذا المجتمع في أبعاده المتباينة والمتشعبة.

Résumé: Le patrimoine hydraulique dans la ville de Tétouan

L'environnement géographique de la région de Tétouan ainsi que d'autres facteurs d'ordre historique, culturel et économique ont beaucoup influencé l'urbanisme et l'urbanisation de la ville. De ce fait Tétouan abrite un patrimoine hydraulique spécifique. Celui-ci est composé de différents systèmes et d'ouvrages.

- un ancien système/réseau d'alimentation en eau potable (skoundou), qui remonte au début du XVII^{ème} siècle et qui est aujourd'hui dans un état délabré, à fonctionnement partiel, réduit et limité à la seule médina. Il a été géré autrefois par des instances sous la responsabilité du juge local. Le fonctionnement du système est délaissé, aujourd'hui pour des raisons peu convaincantes, qu'avancent la Municipalité, Amendis (société chargée de l'eau potable et l'assainissement) et les autres services concernés.

- un nouveau système qui assure l'approvisionnement en eau potable de la ville, avec ses multiples ouvrages (réservoirs, stations, réseau ramifié...). Il date du Protectorat, et son âge est d'environ un siècle (1913-2010). Les ouvrages de ce système ne cessent de s'accroître et se diversifier.

- D'autres ouvrages à caractères hétérogènes (puits, metfia, bassins de réception et de stockage, séguias, etc.) et à usages multiples. Par leurs modes d'usage et leur ancienneté, ces modestes ouvrages rappellent des aspects de production et de mode de vie anciens de la population locale, et donc autant d'éléments de richesse du patrimoine local tétouanais.

La présence des éléments et composantes de ce patrimoine a beaucoup marqué le développement de la ville et de la vie des habitants. Toutefois, ce patrimoine (avec toute sa richesse et sa particularité), en évolution et mutation constante, connaît une dégradation continue de ses composantes, et par conséquent, de la mémoire sociale et spatiale, voire, d'une partie de l'identité urbaine locale, culturelle et matérielle.

Abstract: The Hydraulic Heritage of Water in the City of Tetouan

The geography of the region of Tetouan and other historical cultural, economic factors, have tremendously impacted urbanism and the planning of the city. Thus, Tetouan maintains a particular rich hydraulic heritage which consists of:

- An old system / network of drinking water supply (skoundou), which dates back to the early seventeenth century but is presently in a dilapidated state, with partial reduced and limited function (operating in the Medina only). The system was formerly managed by bodies under the responsibility of the local judge; however, the system has been abandoned for implausible reasons that the Municipality put forward, along with Amendis (the company in charge of water supply and sanitation) as well as other related services.

- A new system that supplies drinking water to the city, supported by its multiple structures (tanks, gas stations, branched network ...). This system dates back to the period of the Protectorate and is of approximately a century of age (1913-2010). The achievements of this network continue to increase and diversify.

- Other heterogeneous systems (wells, "metfias", storage bassins, "seguis", etc..), with multiple functions. These modest structures, ancient and multifunctional, remind us of the old modes of production and the traditional lifestyle of the local people, and are therefore new elements of richness in the local heritage of Tetouani people.

The elements and components of this heritage have highly impacted the development of the city and the life of its residents. However, this heritage (with all its richness and particularity), which is in constant evolution and change, is experiencing a continuous degradation of its components, and therefore the social and spatial memory, and further, part of the local urban, cultural and material identity.